لمحات بلاغية من خلال الأساليب الإنشائية فى سورة الصافات

"دراسة تطبيقية"

بقلم الدكتور

عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر

مدرس البلاغة والنقد

فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحات بلاغية من خلال الأساليب الإنشائية في سورة الصافات

"دراسة تطبيقية"

يقول ابو هلال العسكرى:

إن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله - جل ثناؤه - علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق، الهادى إلى سبيل الرشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها.

وقد علمنا أن الانسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها، وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها. (١)

ويقول الرافعى : إن فنون البلاغة في القرآن أصل فى بنائه ، وصادف كل منها موقعة المتين، فلا يصح التصرف فيها بأى وجه، وإلا اختل البناء، كما لا يمكن التصرف في ألفاظ القرآن بحذف أو زيادة، أو تقديم وتأخير، بينما يمكن التصرف فى فنون البلاغة في كلام العرب ولا يكون هناك كبير تأثير.

---

(١) انظر الصناعتين ص ٩.

ثم يقول : ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن، وبين هذه الأنواع فى كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيا، بحيث يبنى هو عليها، لأنها فى أصل تركيبه، ولا تبنى هى عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شئ من مثل هذا يصح فى الجواز، أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعة إذا تبدلت منه، فضلا عن أن يفى به، وفضلا عن أن يربى عليه، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الموضع.

فكأن البلاغة فيه إنما هى وجه من نظم حروفه، بخلاف ما أنت واجد من كلام البلغاء فإن بلاغته، إنما تصنع لموضعها وتبنى عليه، فربما وفت وربما أخلفت، ولو هى رفعت من نظم الكلام، ثم نزل غيرها فى مكانها، لرأيت النظم نفسه غير مختلف.(١)

ويذكر أنيس المقدسى نصا للسكاكى في حق المعانى والبيان فيقول :

"فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل".(٢)

كما أشاد بدور علوم البلاغة فى التفسير كل من الزمخشرى وأبي حيان والسيوطى فى الإتقان وغيرهم.(٣)

---

(١) انظر إعجاز القرآن ص ٢١٠.

(٢) انظر تطور الاساليب النثرية فى الأدب العربى ص ٥٣ وانظر مفتاح العلوم ص ١٦٢

(٣) الكشاف جـ/٦، البحر المحيط جـ/١٣:٩، الإتقان جـ٣ ١٢٨/١٠٩.

والسور المكية - والصافات واحدة منها - تتناول أصول العقيدة الإسلامية من التوحيد والبعث، والجزاء، والوحى، والرسالة وتهدف إلى تقرير الدعائم والأركان التى شيدت عليها عقيدة الإيمان فى أصوله الراسخة المتينة.

وطبيعة هذا الموقف تتطلب أداء منفعلا متقدا شديد الوقع قوى التأثير، وهذا يتفق مع الأساليب الإنشائية التى تثير انتباه السامع وتهيئ ذهنه ووجدانه لما يعرض عليه. (١)

يقول أحد دارسى علوم البلاغة : إن الأديب حين يريد التعبير بما ينقل إحساسه المرهف إلى القارئ والسامع يبتكر من العبارات ما يؤثر فى نفوسهم، ويحملهم على أن يعيشوا تجربته بوجدانهم وشعورهم، وهو يحس أحيانا أن الصيغ الخبرية وإن عبرت عن شعوره يعوزها فيض من الصيغ الانشائية، يشد أزرها ويقوى أثرها، للوفاء بالغرض، فبالانشاء يقوى الخبر وبهما معا تكتمل الصورة المعبرة المؤثرة. (٢)

---

(١) ساقتصر فى الحديث على الإنشاء الطلبى لأنه موضوع عناية البلاغيين، لما يمتاز به من اللطائف البلاغية الكثيرة، بخلاف أنواع الإنشاء غير الطلبى، لأن أكثرها أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء من ناحية، ولقلة الأغراض البلاغية المتعلقة بها من ناحية أخرى وإن كان للإنشاء غير الطلبى مواقع يلتفت إليها فى البحث عن المزية، وخاصة في الجملة القرآنية فهى بناء قد أحكمت لبناته ونسقت أدق تنسيق.
ولكن الإنشاء غير الطلبى داخل فى الباب العام وهو دقة المطابقة وما وراءها من لطف الاعتبار وخفى الملاحظة.
انظر دلالات التراكيب ص ١٩٢.

(٢) انظر دراسات منهجية فى البلاغة العربية ص ٨٩.

واللغة العربية إنما تكون آدب من غيرها إذا اشتملت على الإنشاء أكثر من غيرها واللغة العربية مجالها واسع في هذا الباب. (١)

إن القرآن المكى يحوى من أساليب الإنشاء أروع الصور وأكثرها للوجدان إثاره، وأشدها على النفس وقعا، فنرى تلك الأساليب تتوالى فى مواضع كثيرة منه مؤدية شتي المعانى البلاغية، محققة هذا التلوين الكلامي الذي يهز المشاعر هزا، ويبعث في النفس شغفا وشوقا إلي تتبعه فى حركة سيره ومجرى انتقاله.

فعندما تحدثت "سورة الصافات" عن كفار مكة وإنكارهم للبعث واستبعادهم للحياة مرة ثانية بعد أن أصبحوا رفاتا وعظاما، تأتى هذه الآيات التى تتضمن أساليب إنشائيه يقتضيها المقام.

* قال تعالي : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم مِنْ طِينٍ لَازِبٍ" (٢)

يأمر الحق سبحانه وتعالى رسوله ومصطفاه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يسأل هؤلاء المنكرين للبعث على سبيل التبكيت "أهم أشد خلقا أم من خلقنا" أى أيهم أقوى بنية وأشد خلقا، هل هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة العجيبة؟

---

(١) انظر المعانى في ضوء أساليب القرآن ص ١٩٣.

(٢) الصافات ١١.

والمقام يستدعى الاستفهامين "التقريرى والإنكارى" وإن كان المعنى في التقريرى أشد وضوحا وألزم بالحجة.

وقرأ الأعمش "أمن" بتخفيف الميم دون "أم" جعله استفهاما ثانيا تقريريا، فمن مبتدأ خبره محذوف، أى "أمن خلقنا أشد"[١]؟ "إنا خلقناهم من طين لازب"

تذييل الآية بهذا التأكيد بعد الاستفهام التقريرى، دلالة ثانية على أن ما خلق من طين رخو لزج القوة فيه أقل.

قال الطبرى : وإنما وصفه باللزوب لأنه تراب مخلوط بماء كذلك خلق ابن آدم من تراب وماء ونار وهواء، والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا"[٢]

ومن الظواهر البلاغية فى هذه الآية مع ما سبق ما يأتى :-

١- **الإيجاز بالحذف.** فالفاء المصدرة لهذه الآية فاء الفصيحة، أى. إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت، أو إذا عرفت ما مر فاستخبر مشركى مكة وأسألهم على سبيل التبكيت أهم أشد خلقا...[٣]

٢- **التغليب** . حيث غلب العقلاء على غيرهم.

٣- إقامة البرهان على إعادة الإنسان، فالذى خلقه من العدم وخلق هذه الخلائق قادر على إعادة الأجسام بعد الفناء.

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/٧٥ بشئ من التصرف.

(٢) انظر تفسير الطبرى ج٢٣/٢٨.

(٣) انظر روح المعانى جـ٢٣/٧٥.

* وفي المجال السابق يقول تعالى :"أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون"(١)

البناء التركيبى في هذا الأسلوب القرآنى، مبناه الاستفهام، والاستفهام هنا للإنكار والاستهزاء.

والمعنى : أئذا أصبحت أجسادنا بالية، وتفتت أجزاؤها إلى تراب وعظام سوف نبعث؛ أو آباؤنا الأولون كذلك سيبعثون؟

قال الزمخشرى : أى أيبعث أيضا آباؤنا ؟ وهذا زيادة فى استبعاد الأمر، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل.(٢)

وهذا الأسلوب القرآنى البليغ فيه : تقديم الظرف لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إلى حالة منافية له غاية المنافاة، وكذا تكرير الهمزة للمبالغة، والتشديد في ذلك وكذا تحلية الجملة بأن واللام لتأكيد الإنكار، لا لإنكار التأكيد، كما يوهمه ظاهر النظم الكريم، فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة.(٣)

* ويقول تعالي :"قل نعم وأنتم داخرون"(٤)

هذه الجملة الطلبية، قد طابقت مقتضى الحال، لأنها وقعت عقب تراكيب أنكر فيها الكافرون - على سبيل الاستهزاء والاستبعاد - البعث والجزاء والحساب، فكان مقتضى الحال أن تأتى

---

(١) الصافات ١٦، ١٧.

(٢) انظر الكشاف جـ٣/٣٣٧.

(٣) انظر روح المعانى جـ٢٣/٧٧.

(٤) الصافات ١٨.

الآيات التى تهز المشاعر وتثير الوجدان - شأن الجمل الطلبية - قل يا أيها النبي لهم نعم ستبعثون جميعا وأنتم أذلاء صاغرون...

* ثم أخبر سبحانه وتعالى عن حسرة المكذبين بيوم الدين وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال: وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ. (١)

عندما عاينوا الأهوال تحسروا وتحزنوا وأظهروا الندم، وليت ساعة مندم، وكأنهم لفرط ما هم فيه صاروا يتخليون أن الويل يسمع ويجيب فنادوه، وهذا ينبئ عما بداخلهم من أحزان وآلام وتحسر وندم.

قال الزجاج. الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، والمقصود أنهم لما شاهدوا القيامة قالوا هذا يوم الدين.. (٣)

ومن بلاغة هذا التركيب القرآنى التعبير باسم الاشارة، هذا إشارة إلي أن هذا هو اليوم الذي لا حكم فيه لأحد إلا لله وإنما ذكروه لما حصل في قلوبهم من الخوف الشديد. (٤)

ولذلك كان تحسرهم وتحزنهم وتفجعهم بكلمة جامعة للشر كله. (٥)

---

(١) الصافات ٢٠.

(٢) انظر التفسير الكبير جـ ٢٦/ ١٣٠.

(٣) المصدر السابق جـ٢٦/ ١٣٠.

(٤) المصدر السابق جـ٢٦/ ١٣٠.

(٥) انظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٦١.

* ثم يأمر الله ملائكته أن يجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين كل إنسان مع نظرائه، فيقول تعالي "احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ"(١).

قال القرطبى: الزانى مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر والسارق مع السارق. (٢)

وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه المراد به أشباههم من العصاة. (٣)

وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم ، ولذلك يجئ أسلوب الأمر وفيه من التهكم والسخرية ما فيه"فاهدوهم إلى صراط الجحيم" لأن الهداية تكون إلي طريق النعم لا الجحيم" (٤)

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال، حيث جاء فى سياق آيات كلها تبين وتوضح موقف الكافرين فى يوم الجزاء، وما يلاقونه فيه من التوبيخ، والتقريع على ما كانوا يكذبون به وينكرونه.

ومن بلاغة هذا الأسلوب الاستعارة التلميحية التى هى استعمال اللفظ الدال علي المدح في نقيضه من الذم والإهانة.

---

(١) الصافات ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ٨/٣٤٥.

(٣) نقلهما عنه صاحب البحر المحيط جـ ٧/٢٥٦.

(٤) انظر الكشاف جـ٣/٣٣٨.

وعدها الخطيب القزويني من العنادية، فقال: ومنها ما استعمال في ضد معناه أو نقيضه بتنزيل التضاد أو التناقض منزلة التناسب بوساطة تهكم أو تلميح.

وسار على ذلك شراح التلخيص، والمدني الذي قال: "ومن العنادية: التهكمية والتلميحية، وهما ما استعمل في ضد أو نقيض"(١)

ويأتي الأمر الأخير في هذه الآيات، وقفوهم أي: واحبسوهم في هذا الموقف إنهم مسئولون عن عقائدهم وأعمالهم(٢)، بتعليل له مؤكد.

ويكتمل موقف هؤلاء العصاة الكافرين المعاندين المليء بتحسرهم وتحزنهم والتهكم عليهم والسخرية بهم، بقوله تعالى: "ما لكم لا تناصرون"، فهذا التركيب مقول قول محذوف، أي: ويقال توبيخالهم، والخطاب لهم وآلهتهم، أو لهم فقط.

والمعنى: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا، كما كنتم تزعمون في الدنيا فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر نحن جميع منتصر، وتأخير هذا السؤال إلى ذلك الوقت، لأنه وقت تنجيز العذاب.

---

(١) انظر الايضاح ص ٢٩٠، وشروح التلخيص جـ٤/٧٨، والمطول ٣٦٥، والأطول جـ٢/١٣٠ وأنوار الربيع جـ١/٢٤٧.

(٢) انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم٦٦٢.

وشدة الحاجة إلى النصرة، وحالة انقطاع الرجاء والتقريع والتوبيخ حينئذ أشد وقعا وتأثيرا. (١)

ولقد حذفت إحدى التاءين من "تناصرون" للتخفيف. ما أروع هذه الأساليب التى أحكمت من لدن حكيم خبير.

*وفى معرض الحديث عن اشتراك رؤساء الكفر وأتباعهم فى العذاب، كما كانوا مشتركين في الغواية، يبين سبحانه وتعالى السبب بقوله: إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ" (٢)

صدر قول هؤلاء المجرمين المشركين بهذا الاستفهام الإنكاري الذي يتصل بالنفس اتصالا مباشرا، ولذلك جاء الرد عليهم بأسلوب بلغ القمة العليا فى البلاغة والبيان.

اضراب ابطالى، وجملة مؤكدة فيها التفات من الغيبة إلى الخطاب لمجابهتهم بالغضب وأنه بلغ أقصى آماده وحدوده. (٣)

ومن بلاغة التركيب القرآنى الذي حكي عن المشركين قولهم المصدر بالاستفهام الإنكاري تذييله بالخلط فى كلامهم، وكأنهم لا يدرون ما يقولون.

---

(١) انظر القرطبى جـ٨/٣٣٥، وروح المعانى جـ٢٣/٨١.

(٢) الصافات ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٧٠.

قال أبو حيان: جمع المشركون بين إنكار الوحدانية، وإنكار الرسالة. ثم خلطوا في كلامهم بقولهم. "شاعر مجنون" فإن الشاعر عنده من الفهم والحذق ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونا لا يصل إلي شئ من ذلك فكلامهم تخليط وهذيان. (١)

* وعندما تناولت السورة الكريمة تأكيد قضية البعث والجزاء والحساب بذكر قصة المؤمن الذى كان له من الدنيا جليس مكذب ينكر الآخرة، يكذب بالبعث والجزاء، وكان في الدنيا يسخر من ذلك المؤمن، ويوبخه على إيمانه وتصديقه، وبينما ذلك المؤمن ينعم في الجنة، ويستمتع بما فيها من الشراب والنعيم مع إخوانه أهل الجنة، إذ تذكر جليسه فى الدنيا، وتطلعت نفسه ليتفقد حاله ويعرف مصيره، فدعا إخوانه إلي التطلع معه على حال ذلك الشقى التعيس.

تأتى هذه الآيات الإنشائية التى تتصل اتصالا مباشرا بالنفس والوجدان. قال تعالي يقول: أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ". (٢)

قال قائل من أهل الجنة إني كان لى قرين في الدنيا، يقول :أئنك لمن المصدقين أى كان يوبخنى على التصديق بالبعث والقيامة ويقول تعجبا : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون" أى لمحاسبون ومجازون".

---

(١) انظر البحر المحيط جـ٧/٣٥٧.

(٢) الصافات ٥٢، ٥٣.

قال الفخر : والمعني أن ذلك القرين، كان يقول هذه الكلمات على سبيل الاستنكار.(١)

ومن بلاغة هذه الأساليب القرآنية ائتلاف اللفظ والمعني ففى الآية رقم (١٦) ختمت بقوله "لمبعوثون" وفي هذه الآية ختمت بقوله "لمدينون" والسر فى ذلك كما يقول الكرمانى أن الأسلوب الأول حكاية كلام الكافرين وهم منكرون للبعث، والثانى قول أحد الفريقين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء وحصوله فيه : كان لى قرين ينكر الجزاء وما نحن فيه.(٢)

*ويقول تعالى :"قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ"(٣)

قال المؤمن لإخوانه فى الجنة : تعالوا نتطلع من كوى(٤) الجنان لنطلع على حال أهل النار.(٥)

لقد طابق هذا الأسلوب - استفهام الأمر - مقتضى الحال حيث نبه الأذهان إلى ما يتحدث به أهل الجنة للأنس والسرور، وهم على موائد الشراب يتلذذون بكل ممتع، وينعمون بتجاذب أطراف الحديث.

---

(١) انظر التفسير الكبير جـ٢٦، ١٣٩.

(٢) انظر أسرار التكرار في القرآن ص ١٧٩.

(٣) الصافات ٥٤.

(٤) الكو والكوة الخرق فى الحائط والثقب فى البيت ونحوه والجمع كوي. اللسان مادة كوى.

(٥) انظر اعراب القرآن الكريم وبيان جـ٨/٢٧٢.

* ويقول تعالى :"أفما نحن بميتين"(١)

قائل هذه الآية ذلك الرجل الذى هو من أهل الجنة، لما تم كلامه مع الرجل الذي كان فى الدنيا قرينا له، وهو الآن من أهل النار، عاد إلي مخاطبة جلسائه الذين هم من أهل الجنة فقال: أفما نحن بميتين" والآية تحتمل الاستفهام التقريرى الذى فيه معنى التعجب كما تحتمل الاستفهام الحقيقى(٢)، فقد ذكر الفخر الرازى : أن أهل الجنة لا يعلمون فى أول دخولهم فى الجنة أنهم لا يموتون، فيعلموا بعد ذلك أنهم لا يموتون، فيكون الاستفهام حقيقيا، قبل علمهم بالخلود - وهذا الرأى غير قوى لأنهم أخبروا فى الدنيا بخلود أهل الجنة.

كما ذكر أن الذى يتكامل خيره وسعادته إذا عظم تعجبه بها قد يقول : أيدوم هذا لى ؟ أفيبقى هذا لى ؟ وإن كان على يقين من دوامه، ثم عند فراغهم من هذه التساؤلات يقولون "إن هذا لهو الفوز العظيم"(٣).

ومن الظواهر البلاغية فى هذا التركيب الإيجاز بالحذف، فالفاء عاطفة على محذوف يقتضية نظم الكلام : أنحن مخلدون منعمون فما نحن بميتين.(٤)

---

(١) الصافات ٥٨.

(٢) يقع الاستفهام الحقيقى فى القرآن الكريم حين يحكى مواقف أو يفصل مقولات.

انظر البلاغة القرآنية ص ٣٥٦.

(٣) الصافات ٦٠ وانظر التفسير الكبير جـ٢٦/١٣٩.

(٤) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٧٣.

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال حيث إن فى تقرير ذلك المؤمن لإخوانه فى الجنة بهذا التركيب، ابتهاجا بما أتاح الله تعالي له من الفضل العظيم، والنعيم المقيم، وتعريضا للقرين بالتوبيخ.

* قال تعالى : "لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ"(١)

ختم الحوار الذى دار بين المؤمن والكافر بهذه النتيجة التى آل إليها أمر كل منهما بخلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار فجاء الأسلوب على هذه الصورة(٢) التى تنبه الأذهان إلي أن هذا الجزاء الكريم - الذي أعده الله للمؤمن - يجب أن يعمل له العاملون ويجتهد المجتهدون.

وصدر الأمر بفاء الفصيحة أى : إن تبين حقيقة حال أهل الجنة فليعمل، كما تضمن الأسلوب ظاهرة بلاغية أخري وهى تقديم الجار والمجرور والمضاف إليه على الفعل.(٣) ترغيبا للمكلفين فى عمل الطاعات.

*وفى بيان ما أعده الله للاشرار في دار الجحيم تأتى هذه الجملة الإنشائية "أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ"(٤)

---

(١) الصافات ٦١.

(٢) الأمر للترغيب فى المأمور به، ويأتى غالبا إذا كان الأمر بالشئ عقب النهى عن نقيضه. انظر الكشاف جـ١/٣٢٦.

(٣) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٢٧٤.

(٤) الصافات ٦٢.

هذا استفهام تقريرى، والمراد تقرير قريش والكفار وتوقيفهم على شيئين أحدهما فاسد ولو كان الكلام استفهاما حقيقة لم يجز، إذ لا يتوهم أحد أن فى شجرة الزقوم خيرا حتى يعادل بينها وبين رزق الجنة، ولكن المؤمن لما أختار ما أدى إلى رزق الجنة والكافر اختار ما أدى إلى شجرة الزقوم، قيل ذلك توبيخا للكافرين وتوقيفا على سوء اختيارهم. (١)

ومجئ الأسلوب على هذا البناء التركيبي، اقتضاه المقام. لما ذكر تعالى ما أعده للأبرار فى دار النعيم، ذكر ما أعده للأشرار فى دار الجحيم.

*وفى ختام ما أعده الله للأشرار تأتى هذه الآية المتضمنة للأمر والاستفهام.

"فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ" (٢)

الخطاب فى هذه الآية إما لسيد المخاطبين محمد صلى الله عليه وسلم أو لكل من يتأتي منه مشاهده آثارهم.

فانظر كيف كان مصير أمر هؤلاء المكذبين ؟ ألم نهلكهم فنصيرهم عبرة للعباد ؟

---

(١) انظر البحر المحيط جـ٧/٣٦٣.

(٢) الصافات ٧٣ والاستفهام للتهويل والأمر للاعتبار- انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٢/٣٣٨ ومعترك الأقران جـ١/٤٤٢ وعروس الأفراح ج ٢/٣٢١.

ولقد طابق هذا التركيب مقتضى الحال حيث إنه جاء في نهاية الآيات التي بينت ما أعده الله للأشرار في دار الجحيم، بعد ما بين سبحانه، ما أعده للأبرار في دار النعيم ليظهر التمييز بين الفريقين، ولذلك جاء هذا التركيب على هذه الصورة الإنشائية المكونة من الأمر والاستفهام، التي تثير الوجدان وتؤثر في النفس، لأنها لا تحتمل أن يقال لقائلها صدقت أو كذبت.

ولما كان المعنى مؤثرا في النفس، أنهم أهلكوا اهلاكا فظيعا استثنى عنهم المخلصين بقوله عز وجل "إلا عباد الله المخلصين"(١)، أي الذين أخلصهم الله تعالى بتوفيقهم للإيمان والعمل بموجب الإنذار.

ومن الظواهر البلاغية التي ساعدت على إبراز المعني مع ما سبق ما يأتي :

١) تصدير التركيب بفاء الفصيحة.

٢) التقديم والتأخير (٢)

٣) الاستثناء الذي قوي معنى التأثير.

*وعندما تستعرض السورة الكريمة طرفا من قصص الأنبياء وما فيها من العظات والعبر للمعتبرين، تأتي هذه الآيات الإنشائية وما فيها من لمحات بلاغية لتثبت المعنى في الأذهان والوجدان.

---

(١) الصافات ٧٤ وانظر روح المعاني جـ٢٣/٩٧.

(٢) انظر إعراب القران الكريم وبيانه جـ٨/٢٨٧.

قال تعالى :إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ"(١).

هذه التراكيب التى قالها إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه بنيت على الاستفهام الإنكارى التوبيخى.

أى : ما كان ينبغى أن يقع منكم ما وقع، وتعاون مع أسلوب الاستفهام فى قوله "أئفكا آلهة... الآية، فى إبراز المعنى المراد، تقديم المفعول لأجله "أفكا" علي المفعول به لأجل التقبيح عليهم بأنه على أفك وباطل فى شركهم والأصل كما يقول الألوسى : أتريدون آلهة من دون الله إفكا"(٢)

ثم جاء التركيب اللاحق "فما ظنكم برب العالمين" كالحجة على ماقبله.

يقول البيضاوى : والمعنى : إنكار ما يوجب ظنا فضلا عن قطع يصد عن عبادته أو يجوز الاشراك به ، أو يقتضى الأمن من عقابه على طريق الالزام، وهو كالحجة علي ما قبله.(٣)

*وفى القصة يأتى قوله تعالي : فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ"؟(٤)

---

(١) الصافات ٨٥، ٨٦، ٨٧.

(٢) انظر روح المعانى جـ٢٣/ ١٠٠.

(٣) انظر تفسير البيضاوى ص ٥٩٤.

(٤) الصافات ٩١، ٩٢.

أى قال لهم إبراهيم عليه السلام، على سبيل التهكم والاستهزاء[١]، ألا تأكلون من هذا الطعام؟

قال ابن كثير : وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبارك لهم فيه.[٢]

ما لكم لا تنطقون ؟ أى : مالكم لا تجيبوننى على سؤالى ؟

وهذا التركيب القرآنى الذى جاء على لسان إبراهيم عليه السلام مطابقا لمقتضى حال هذه الأصنام، حيث إن المتهكم منه غير جدير بالمبالاة.[٣]

قال أبو حيان : وعرض الأكل عليها واستفهامها عن النطق إنما هو على سبيل الهزء لأنها منحطة عن مرتبة عابديها، إذ هم يأكلون وينطقون، بخلافها.[٤]

*وقوله تعالى :"قال أتعبدون ما تنحتون"[٥]

---

(١) قال الزمخشرى : تهكم عليه من شدة الغضب، وتهكم علينا : تعدى وتهكم به : تهزأ به.

انظر أساس البلاغة جـ٢/ ٥٥٠.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم جـ٤/ ١٣.

(٣) انظر البرهان فى علوم القرآن جـ٢/ ٣٤٣.

(٤) انظر تفسير البحر المحيطة جـ٧/ ٣٦٦.

(٥) الصافات ٩٥.

هذا أسلوب إنكارى توبيخى أجاب به إبراهيم عليه السلام قومه عندما أدركوه وهو يكسر الأصنام، وقالوا له ويحك نحن نعبدها، وأنت تكسرها، فأجابهم: بهذه الآية موبخا لهم، أى: أتعبدون أصناما نحتموها بأيديكم، وصنعتموها بأنفسكم؟[١]

*وقوله تعالى: "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"[٢]

الأمر فى هذا التركيب القرآنى الكريم للمشورة[٣].

والمعنى: قال عباد الأصنام لبعض - لما قرعتم الحجة ولجأوا إلى القوة فعزموا علي إحراقه - أبنوا له بنيانا، واملأوه نارا متأججة وألقوه في وسطها.[٤]

قال المفسرون: لما غلبهم إبراهيم عليه السلام في الحجة، مالوا إلي الغلبة بقوة البطش والشدة وتشاوروا فيما بينهم، ثم قرروا أن يطرحوه في النار انتصارا لأصنامهم وآلهتهم. ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال حيث بين من خلال الجملة الطلبية التى تثير الوجدان، وتؤثر في النفس، أن منطق الطغاة هو منطق الحديد والنار ولا يعرفون منطقا سواه عندما تعوزهم الحجة وينقصهم الدليل، وحينما تحرجهم كلمة الحق الخالصة ذات السلطان المبين.[٥]

---

(١) انظر الاتقات فى علوم القرآن جـ٣/٢٣٦.

(٢) الصافات ٩٧.

(٣) انظر عروس الأفراح جـ٢/٣٢١، ومعترك الأقران جـ١/٤٤٣.

(٤) انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص ٦٦٨.

(٥) انظر فى ظلال القرآن جـ٥/٢٩٩٣.

*وقرب ختام قصة إبراهيم عليه السلام تأتى هذه الآيات.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. (١)

رب هب لى ... لا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب، بل ينادى مجردا من حرف النداء، ولعل فى ذلك تعبيرا عن شعور الداعي بقربه من ربه. (٢)

ولقد جاء النداء مطابقا لمقتضى الحال حيث نبه النفس وهيأها للأمر الواقع بعده، فجاء الدعاء من نفس يقظة متجردة من الدنيا قريبة من ربها عالمة أن للكون ربا يجب أن يدعى ويلتجأ إليه، فهو الذي يمنح ويعطى بدون حساب، ولذلك جاء البشارة... "فبشرناه بغلام...

قال أبو السعود :

جمع الله له فيه بشارات ثلاث، بشارة أنه غلام، وأنه يبلغ أوان الحلم، وأنه يكون حليما، لأن الصغير لا يوصف بذلك وأى حلم يعادل حلمه عليه السلام حين عرض عليه أبوه الذبح فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إنى شاء الله من الصابرين" (٣)

---

(١) الصافات ١٠٠، ١٠٥.

(٢) انظر من بلاغة القرآن ص ١٦٨.

(٣) الصافات ١٠٢ وانظر تفسير أبى السعود جـ ٢٧٣/٤.

ومن بلاغة هذا التركيب الإيجاز بالحذف، حيث حذف أداة النداء، وياء المتكلم، ومن الصالحين صفة لمفعول به محذوف، أى : ولدا من الصالحين.(١)

فلما بلغ معه السعى قال يا بنى ... الآية.

نادى إبراهيم عليه السلام ابنه وهو قريب منه بأداة نداء تدل على البعد، وذلك للاشعار ببعد منزلته وعلو مكانته، فينزل بعد المنزلة وعلو المكانة، منزلة البعد المكانى.

ثم يأمره بأمر المراد منه المشورة، باستفهام المراد منه التسهيل، أى : فانظر في الأمر ما رأيك فيه ؟

قال ابن كثير :

وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه، وليختبر صبره وجلده وعزمه على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه.(٢)

فإن قيل لم تشاوره فى أمر هو حتم من الله ؟ فالجواب :

أنه لم يشاوره ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده، فيثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر، فأجابه بأحسن جواب قال : يا أبت ... نادى إسماعيل أباه وهو قريب منه، وقد استخدم "يا" الموضوعة لنداء البعيد لينبئ ببعد مكانته وسمو منزلته وهذا أدب الابن مع أبيه.

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ ٨/٢٩٣.

(٢) انظر مختصر ابن كثير ج٣/١٨٦.

ثم يعقب النداء أمر المراد منه التسليم والتفويض أى : امض لما أمرك الله به من ذبحى، فستجدني صابرا إن شاء الله تعالى.

وهذا التركيب القرآنى الذى قاله إسماعيل لوالده "قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين" واقع جوابا للسؤال المتقدم عليه "فانظر ماذا ترى؟ وهو جواب من أوتى الحلم والصبر وامتثال الأمر والرضا بقضاء الله، والتسليم لحكم الله. (١)

ولقد تضمنت الآية الكريمة نكات بلاغية إنشائية كثيرة منها النداء الأول الآتى على سبيل الترحم، والثانى الآتى على سبيل التوقيروالتعظيم. (١) والأمر الأول الآتى على سبيل المشورة (٢) والثانى الآتى على سبيل التفويض والتسليم - لأنه فوض الأمر حيث استشارة - وهو واقع في الآية جوابا للسؤال - فانظر ماذا ترى ؟

فأجاب بأنه ليس مجازها، وإنما الواجب امضاء الأمر. (٣)

هذا إلي جانب الإيجاز بالحذف "أى افعل ما تؤمر به" فحذف الجار كما حذف من قوله :"أمرتك الخير فافعل ما أمرت به".

فوصل الفعل إلي الضمير، فصار تؤمره ثم حذفت الهاء (٤)

فما أروع هذه التراكيب القرآنية التى جسمت المعنى ووضحته فلا عذر لمعتذر.

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٢٩ والصاحبى ١٨٥.

(٢) انظر عروس الأفراح جـ٢/٣٢١.

(٣) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٢٩.

(٤) انظر تفسير القرطبى جـ٨/٣٧١.

والتى طابقت مقتضى الحال، فلما كان المقام مقام شدة وامتحان وبلاء، جاءت التراكيب إنشائية كى تثير الوجدان وتؤثر فى النفس.

ثم يأتى النداء الأخير في هذه القصة : وناديناه أن يا إبراهيم ... وفى نداء إبراهيم، والله عز وجل أقرب إلى عباده من حبل الوريد، وقد جاء النداء "بيا" الموضوعة لنداء البعيد، للتنبيه على عظم الأمر الذى نودى من أجل، وعلو شأنه وليبادر المنادى بالامتثال والاستجابة.

جاء أسلوب النداء مصاحبا معه الأساليب الخبرية المؤكدة والانشائية من استفهام وأمر، لأن المقام اقتضاها، يقول الزركشى : وكل نداء فى كتاب الله يعقبه فهم في الدين حقه أن يدرك بصيغ بليغة. (١)

فالقصة "قصة الإيمان والابتلاء" فى حادثة الذبيح إسماعيل وما جرى من أمر الرؤيا للخليل إبراهيم، حين أمر بذبح ولده، ثم جاء النداء تعليما للمؤمنين كيف يكون أمر الانقياد والاستسلام لأمر أحكم الحاكمين، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ.

ومن بلاغة هذا الأسلوب الإيجاز بالحذف - حذف جواب لما - فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به الوصف. (٢)

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن جـ٢/٣٢٤.

(٢) انظر معجم المصطلحات البلاغية وتطورها جـ١/٣٥٥، والكشاف جـ٣/٣٤٨ والطراز جـ٢/١١٣، ١١٤.

*وفى مجال استعراض السورة الكريمة لقصة إلياس تأتى هذه التراكيب الإنشائية : قال تعالى : إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ"(١)

القائل : هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخى موسى(٢).

قال لقومه بنى إسرائيل ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ؟

وقوله هذا مطابق لمقتضى الحال، لأن الاستفهام فيه بمعنى الأمر، أى :اتقوا، والأمر فيه تنبيه للعقل وتحريك للفكر وحث علي النظر والتأمل.(٣)

ثم يتبع ذلك بهذا الاستفهام الإنكارى التوبيخى، أى : ما كان ينبغى أن يقع منكم ما وقع، بأن تعبدوا هذا الصنم - المسمى بعلا - وتتركوا عبادة ربكم أحسن الخالقين.(٤)

إن الآيات التى قالها إبراهيم عليه السلام لقومه، وكذلك إلياس، قد طابقت مقتضى الحال، حيث إن بناء الكلام على الاستفهام يثير الوجدان ويؤثر فى النفس.

---

(١) الصافات ١٢٤، ١٢٥.

(٢) انظر تفسير أبى السعود جـ٤/٢٧٦.

(٣) انظر علم المعاني جـ٢/١٣٩، والمقصود من أداة التحضيض هنا الحث على الفعل لذا كان الفعل المستقبل بعدها بمنزلة فعل الأمر. انظر أضواء على شرح ابن عقيل جـ٣/١٩٩.

(٤) انظر الاتقان في علوم القرآن جـ٣/٢٣٥.

يقول عبد القاهر الجرجانى : واعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى، أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعى بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه، فإذا ثبت على دعواه قيل له، "فافعل "فيفضحه ذلك، وإما لأنه هم بأنه يفعل ما لا يستصوب فعله، فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ وإما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله، فإذا ثبت على تجويزه وبخ على تعنته وقيل له : فأرناه فى موضع وفى حال، وأقم شاهدا على أنه كان فى وقت، ولو كان يكون للإنكار، وكان المعنى فيه من بدء الأمر، لكان ينبغى ألا يجئ فيما لا يقول عاقل أنه يكون حتى ينكر عليه. (١)

وتعاون في إبراز المعنى مع هذا الأسلوب الطباق بين تدعون ... وتذرون إن جمال المطابقة والمقابلة نابع من عرض المتضادات فى نسق مؤتلف يثيرالانتباه إلى الفكرة فيشتد تقبل الذهن لها ورسوخها فيه، وإن الاضداد يظهر بعضها بعضا، وبذلك تزداد الفكرة وضوحا، فقد قيل وبضدها تتميز الأشياء. (٢)

*وفي مجال تذكير أهل مكة بعذاب من سبقهم من الأمم الذين كذبوا رسلهم يأتى هذا الإنشاء، قال تعالى : وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (٣)

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ١٥١.

(٢) انظر الصبغ البديعى ص ٤٧١ بشئ من التصرف.

(٣) الصافات ١٣٨.

يخاطب القرآن الكريم أهل مكة، ويقول لهم : يا أهل مكة إنكم لتمرون على منازل من سبقكم من الأمم فى أسفاركم وتشاهدون آثار هلاكهم صباحا ومساء، وليلا ونهارا، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل "أفلا تعقلون".

ذيلت هذه الآية بهذا الإستفهام التوبيخى الذى يدل على استقباح عدم تعقلهم وهم الذين يشاهدون ذلك، فأتى هذا الأسلوب الاستفهامى لينبه السامع حتى يرجع إلى نفسه ويفيق من غفلته.

يقول الألوسى : أتشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فإن منشأ ذلك مخالفتهم رسولهم، ومخالفة الرسول قدر مشترك بينكم (١)

*لما انتهت السورة من الحديث عن الرسل الكرام رجعت إلى الحديث عن المكذبين من كفار مكة، فقال تعالى : فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" (٢).

فاستفتهم... هذه أولى الآيات المبنية على الاستفهام الإنكارى، في الاستفتاء الثانى بعد الاستفتاء الأول، فلقد أمر الله

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٤٢.

(٢) الصافات ١٤٩: ١٥٧.

تعالي نبية صلى الله عليه وسلم، فى صدر السورة الكريمة بتبكيت قريش وابطال مذهبهم في إنكار البعث بطريق الاستفاء "فاستفتهم أهم أشد خلقا".

وساق البراهين الناطقة بتحقيقة لا محالة، وبين وقوعة وما يلقونه عند ذلك من فنون العذاب واستثنى منهم عباده المخلصين، وفصل سبحانه مالهم من النعيم المقيم، ثم ذكر سبحانه أنه قد ضل من قبلهم أكثر الأولين، وأنه تعالى أرسل إليهم منذرين على وجه الإجمال، ثم أورد قصص بعض الأنبياء عليهم السلام بنوع تفصيل متضمنا كل منها مايدل على فضلهم وعبوديتهم له عز وجل، ثم أمره صلى الله عليه وسلم ها هنا بتبكيتهم بطريق الاستفتاء عن وجه ما تنكره العقول بالكلية وهى القسمة الباطلة اللازمة لما كانوا عليه من الاعتقاد الزائغ حيث كانوا يقولون - كبعض أجناس العرب جهينة وسليم وخزاعة وبنى مليح - : الملائكة بنات الله، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا. (١)

ولذلك جاءت الآيات مبنية على الاستفهام الإنكاري بعد الأمر الاسترشادى، لتنبيه السامع حتى يرجع إلي نفسه ليجيب فيعيا بالجواب، ويعلم أنك قصدت تكذبيه أو توبيخه، وقد تتمادى به الغفلة ويظنك مستفهما حقا فيجيب، فتكذبه أو توبخه.

والفاء في التركيب الأول للفصيحة أى : إذا كان لنا من المخلوقات ما سمعت، أو إذا عرفت ما مر فاستخبر مشركى مكة وأسألهم على سبيل التبكيت "أهم أشد خلقا (٢)....

---

(١) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٤٩.

(٢) انظر روح المعانى جـ٢٣/٧٥.

والفاء في التركيب الثاني عاطفة، يقول الزمخشري: فاستفتهم معطوف على مثله في أول السورة، وإن تباعدت بينهما المسافة.

أمر رسوله صلي الله عليه وسلم باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولا، ثم ساق الكلام موصلا بعضه ببعض، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها، حيث جعلوا لله الإناث ولأنفسهم الذكور، في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن. (١)

ما أروع هذه التركيبات القرآنية، تركيبان يفصل بينهما ما يقرب من سورة، والعطف بينهما حسن، مع أن النحاة تستقبح الفصل بجملة، ولكن لما كان الكلام هنا تعانقت معانيه وارتبطت مبانيه وأخذت بعضها بحجز بعض حتى كأن الجميع كلمة واحدة لم يعد البعد بعدا كما قيل.

وليس يضير البعد بين جسومنا ... إذا كان ما بين القلوب قريبا

ووجه ترتب المعطوف على ما قبل كوجه ترتب المعطوف عليه، فإنه كونه تعالى رب السموات والأرض وتلك الخلائق العظيمة كما دل على وحدته تعالى وقدرته عز وجل دال علي تنزهه سبحانه عن الولد.

ألا ترى إلى قوله جل شأنه: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ (٢)

---

(١) انظر الكشاف جـ٣/٣٤٥.

(٢) الأنعام ١٠١.

والمناسبة بين الرد على منكرى البعث والرد على مثبتى الولد ظاهرة وقد اتحد في الجملتين السائل والمسئول والأمر. (١)

ثم يأتى توبيخ آخر على بهتانهم واستهزاء بهم وتجهيل لهم فى قوله تعالى :أم خلقنا الملائكة إناثا ... أى : بل أخلقنا الملائكة الأطهار حين خلقناهم، وجعلناهم إناثا وهم شاهدون لذلك حتى يقولوا مثل هذا البهتان. (٢)

ثم تتوالى الاستفهامات التى اقتضاها المقام : أصطفى .. للاستفهام الإنكارى التكذيبى، والمراد اثبات إفكهم وتقرير كذبهم.

مالكم ... تسفيه لهم وتجهيل : أى : أى شئ حصل لكم حتي حكمتم بهذا الحكم الجائر؟

كيف تحكمون ... كيف يختار لنفسه أخس الجنسين على زعمكم؟

والالتفات في هذه الآية لزيادة التوبيخ.

أفلا تذكرون ... استفهام توبيخى منطو على إيجاز بالحذف، فالفاء للعطف على مقدر أى : أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه، فإنه مركوز فى عقل كل ذكى وغبى.

أم لكم سلطان مبين ... توبيخ آخر أى : أم لكم برهان بين وحجة واضحة على أن الله اتخذ الملائكة بنات له؟ (٣)

---

(١) انظر روح المعانى جـ ١٤٩/٢٣.

(٢) انظر روح المعانى جـ١٥٠/٢٣.

(٣) انظر روح المعانى جـ١٥٠/٢٣، ١٥١، والإيضاح جـ٤٦/٢.

فى هذه الآيات يبـــــدو الأسلوب المكى واضح الدلالة ظاهر المفهوم، فقد تكرر فيه الاستفهام الإنكارى ناعيا عليهم جهلهم المفرط فى الغباء القائم على ثلاث جهالات:

أولاها : التجسيم لأن الولادة من خصائص الأجسام.

ثانيتها : تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا أوضع الجنسين فى اصطلاحهم ومفهومهم له وأرفعهما لهم، وتلك جهالة ما بعدها جهالة.

وثالثتها : أنهم استهانوا بأكرم خلق الله، وأقربهم إليه حيث أنثوهم وقد كانوا يتعايرون بوصف الأنوثة، ويعتبرونه من دلائل المهانة وسمات الخسة.(١)

وتختم الآيات في هذا المقام بهذا الأمر : فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين "والغرض تعجيزهم، وبيان أنهم لا يستندون فى أقوالهم الباطلة على دليل شرعى ولا منطق عقلى.

وسر بلاغة التعبير بالأمر في مقام التعجيز، إبراز قوة التحدى والتسجيل عليهم ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة.

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال، حيث جاء عقب آيات فيها من الأنباء عن السخط العظيم والإنكار الفظيع لأقاويلهم والاستبعاد الشديد لأباطيلهم، وتسفيه أحلامهم وتركيك عقولهم وأفهامهم، مع الاستهزاء بهم، وتعجيب من جهلهم ما لا يخفى على

---

(١) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٣١٤.

من تأمل فيها ... فكان مقتضى الحال أن يأتى التعجيز والتهكم بهم.

ومن الظواهر البلاغية التى ساعدت على إبراز المعنى مع ما سبق ما يأتى :-

١- الطباق بين "البنات ... والبنين"

٢- التقديم والتأخير، (كتقديم الخبر والحال والمفعول)، وفيه يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى إن هذا الباب كثير الفوائد جم المحاسن، واسع التصرف بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلي لطيفة ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر، فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شئ، وحول اللفظ عن مكان إلي مكان.(١)

٣- تتابع التوبيخ وتكراره مثل "ألربك البنات"؟"أم خلقنا الملائكة إناثا"؟"مالكم كيف تحكمون"؟"أفلا تذكرون"؟"أم لكم سلطان مبين"؟ وكلها للتوبيخ والتبكيت(٢).

٤- الإضافة :"بكتابكم" ففى إضافة الكتاب إليهم تهكم بهم.(٣) لأنه لا يوجد كتاب لديهم ينطق بصحة دعواهم.

٥- الإيجاز بالحذف "فأتوا .. فالفاء للفصيحة، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله(٤)

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٧.

(٢) انظر صفوة التفاسير جـ١٤/٢٥.

(٣) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٥١.

(٤) انظر إعراب القرآن الكريم وبيانه جـ٨/٣١٧.

*وفى نهاية الحديثة عن المكذبين من كفار مكة تأتى هذه الجمل التى تؤكد نصره الله لأنبيائه وأوليائه.

قال تعالى : فتول عنهم حتي حين ، وأبصر فسوف يبصرون أفبعذابنا يستعجلون، فإذ نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين وتول عنهم حتي حين، وأبصر فسوف يبصرون"(١)

المعنى : فتول عنهم يا محمد وأعرض، ولا تحفلهم، ودعهم لليوم الذى تراهم فيه، ويرون هم ما ينتهى إليه وعد الله فيك وفيهم.

روى أنه لما نزل : "فسوف يبصرون" استهزؤا وقالوا متى هذا يكون ؟ فنزلت الآية "أفبعذابنا يستعجلون" ؟ مصدرة باستفهام يفيد التهديد والوعيد، وفاء عاطفة على محذوف يقدر بحسب المقام.

ثم قال تعالى : فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين "أى لا يستبعدون ذلك، فإن العذاب إذا نزل بفناء المكذبين، فبئس هذا الصباح صباحهم، شبهه بجيش هجم عليهم وقت الصباح فقطع دابرهم.

يقول الزمخشرى : وما فصحت هذه الجملة ولا كانت لها الروعة التى يروقك موردها إلا لمجيئها على طريقة التمثيل.(٢) وهو: مثّل العذاب النازل بهم بعدما أنذروه فأنكروه بجيش أنذر بهجومه قومه بعض نصاحهم فلم يلتفتوا إلى إنذاره ولا أخذوا أهبتهم، ولا

---

(١) الصافات ١٧٤، ١٧٩.

(٢) انظر الكشاف جـ٤/٥٢.

دبروا أمرهم تدبيرا ينجيهم حتي أتاح بفنائهم بغته فشن عليهم الغارة وقطع دابرهم، وكانت عادة مغاويرهم أن يغيروا صباحا فسميت الغارة صباحا وإن وقعت فى وقت آخر.

ثم يكرر الأمر بالإعراض عنهم والإهمال لشأنهم، والتهديد الملفوف فى ذلك الأمر المخيف، "وتول عنهم حتي حين"، كما يكرر الإشارة إلى هول ما سيكون، "وأبصر فسوف يبصرون"، ويدعه مجملا يوحى بالهول المرهوب.(١) الذى يذهب فيه الذهن كل مذهب.

ولقد طابق هذا الأسلوب مقتضى الحال، حيث جاء عقب ذكر قصص بعض الأنبياء، وما فى هذه القصص من العظات والعبر، فكان مقتضى الحال أن تختم السورة الكريمة ببيان أن النصر والغلبة للرسل وأتباعهم المؤمنين.

ولقد تعاون على إبراز المعنى المراد مع أسلوب الإنشاء الملفوف بالتهديد(٢) التكرير تأكيدا للتهديد، وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم مع ما فى اطلاق الفعلين عن المفعول من الإيذان ظاهرا بأن ما يبصره عليه الصلاة والسلام حينئذ من فنون المسار وما يبصرونه من فنون المضار لا يحيط به الوصف والبيان.(٣)

ومن فوائد التكرار والحذف فى هذه التركيبات القرآنية، أن قوله تعالى فى الأوليين "وأبصرهم" وفى هاتين "فأبصر" أن الأولى بنزول

---

(١) انظر فى ظلال القرآن جـ٥/٢٠٠٣.

(٢) انظر الأقصى القريب ٨٧، والصاحبى ١٨٥.

(٣) انظر روح المعانى جـ٢٣/١٥٧.

العذاب بهم يوم بدر قتلا، وأسرا وهزيمة ورعبا، فما تضمنت التشفى بهم قيل له :"أبصرهم" وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم والإنعام بتأمينهم والهداية إلي إيمانهم، فلم يكن وفقا للتشفى بهم، بل كان في استسلامهم، واسلامهم لعينه قرة ولقلبة مسرة فقيل له "أبصر" ومن فوائد ، قوله تعالي :"فسوف يبصرون "أى يبصرونَ منّك عليهم بالأمان، ومننا عليهم بالإيمان"[1].

وبعـــــد

فإن فنون البلاغة فى القرآن تجل عن الحصر والعد، ولا يحيط بها إلا الله سبحانه وتعالى، بدليل ما يستخرجه الدارسون كل يوم من أسرار جديدة فى القرآن لم يتنبه لها السابقون، وتلك كلمة الله التى أودعها في كتابه، فهو لا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه ليظل محل أنظار وقلوب الباحثين والدارسين حتى يرث الله الأرض وما عليها.

وتختم السورة الكريمة بتنزيه الله سبحانه عما لا يليق من صفات العجز والنقص، واختصاصه بالعزة والجلال، وبالسلام على رسله الكرام، وبإعلان الحمد لله الواحد الأحد وهو الختام المناسب لموضوع السورة.

روى ابن أبى حاتم عن الشعبى قال : قال رسول الله صلى عليه وسلم" من سرة أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن جـ٣/٢٣.

حين يريد أن يقوم ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)

ولله الحمد اولا واخيرا

دكتور

عبد المجيد عبد المجيد هنداوى جعفر

مدرس البلاغة والنقد

فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة

---

(١) انظر صفوة التفاسير جـ١٤/٢٦، وإيجاز البيان فى سور القرآن ص ١٥٥.

مراجع البحث

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث بالقاهرة.
٢- أساس البلاغة للزمخشرى - الهيئة المصرية للكتاب.
٣- أسرار التكرار في القران الكريم للكرمانى - تحقيق عبد القادر أحمد عطا - دار الاعتصام.
٤- أضواء على شرح ابن عقيل - تأليف عاصم البيطار، وعبد الفتاح الغندور وحسن عبده الريس سنه ١٣٩٧هـ.
٥- الأطول للعصام - مطبعة السعادة بمصر سنه ١٣٤٣هـ.
٦- اعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية- لمصطفى صادق الرافعى - طبعة القاهرة.
٧- إعراب القرآن الكريم وبيانه - لمحيى الدين الدرويش - دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية.
٨- الأقصى القريب فى علم البيان للتنوخى - مطبعة السعادة سنه ١٣٢٧هـ.
٩- أنوار الربيع فى أنواع البديع - تأليف السيد على صدر الدين ابن معصوم المدنى - تحقيق شاكر هادى شاكر - مطبعة النعمان بالعراق سنه ١٩٦٨م.
١٠-إيجاز البيان فى سور القرآن للصابونى - دار القرآن الكريم - بيروت.
١١-الإيضاح للخطيب القزوينى - دار الجيل - بيروت.
١٢-البرهان فى علوم القرآن للامام الزركشى تحقيق - محمد أبو الفضل إبراهيم دار الفكر للطباعة والنشر سنه ١٤٠٠هـ، سنه ١٩٨٠م.

١٣- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور / محمد أبو موسى مكتبة وهبة.
١٤- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة - تحقيق السيد أحمد صقر - دار التراث.
١٥- تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى - لأنيس المقدسى دار العلم للملايين - بيروت.
١٦- تفسير ابن كثير - مكتبة دار التراث - القاهرة.
١٧- تفسير أبى السعود - دار الفكر.
١٨- تفسير البحر المحيط- لأبي حيان الأندلسى-دار الفكر- القاهرة.
١٩- تفسيرالبيضاوى - دار الجيل - بيروت.
٢٠- تفسير الطبرى - جامع البيان وبهامشه غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى- مطبعة بولاق.
٢١- تفسير القرطبى - طبع دار الكتب المصرية.
٢٢- التفسير الكبير للفخر الرازى - دار إحياء التراث - بيروت.
٢٣- دراسات منهجية فى البلاغة العربية للدكتور أحمد حفنى مطبعة زهران - القاهرة.
٢٤- دلائل الإعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى - تحقيق : الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - مكتبة القاهرة.
٢٥- دلالات التراكيب دكتور / محمد أبو موسى مكتبة وهبة.
٢٦- روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى - دار الفكر العربى بيروت.
٢٧- شروح التلخيص - مطبعة السعادة بمصر سنه ١٣٤٣هـ.
٢٨- الصاحبى لابن فارس- مطبعة المؤيد سنة ١٣٢٨هـ، سنة ١٩١٠م.
٢٩- الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور / أحمد موسى - دار الكاتب العربى - القاهرة.

٣٠- صفوة التفاسير - محمد على الصابونى - دار القرآن الكريم بيروت.
٣١- الصناعتين لأبى هلال العسكرى - تحقيق الدكتور مفيد قميحة - دار الكتب العلمية بيروت
٣٢- الطراز للعلوى - المقتطف سنة ١٩٣٤م
٣٣- عروس الأفراح "ضمن شروح التلخيص" مطبعة السعادة بمصر"
٣٤- علم المعانى للدكتور درويش الجندى - دار نهضة مصر.
٣٥- علم المعانى دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعانى للدكتور بسيونى عبد الفتاح - مطبعة السعادة.
٣٦- فى ظلال القرآن للاستاذ / سيد قطب - دار الشروق.
٣٧- الكشاف للزمخشرى - دار المعرفة - بيروت.
٣٨- لسان العرب لابن منظور - دار المعارف.
٣٩- مختصر تفسير ابن كثير للصابونى - دار القران الكريم.
٤٠- المطول لسعد الدين التفتازانى - مطبعة أحمد كامل سنة ١٣٣٠هـ.
٤١- المعانى فى ضوء أساليب القرآن للدكتور عبد الفتاح لاشين - دار المعارف.
٤٢- معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى - تحقيق على البجاوى - دار الفكر العربي - القاهرة سنه ١٩٦٩م.
٤٣- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب المجمع العلمى العراقى.
٤٤- من بلاغة القرآن للدكتور/ أحمد بدوى - مطبعة نهضة مصر.
٤٥- المنتخب في تفسير القرآن الكريم - لجنة القرآن والسنة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
٤٦- النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه - للدكتور عبد الحكيم بلبع - مكتبة وهبة.